الأفغاني والوحدة الإسلامية

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

— ٣ —

ماذا كان يرجو السيد الأفغانى من وراء الوحدة ؟ وماذا كان يعلق عليها من الآمال والأغراض ؟ ويحدد لها من الأهداف والغايات ؟

لقد كان الرجل يقف من ذلك بادىء الأمر عند مسألة المسائل ، فكان كل مايرجو أن تكون الوحدة قوة دفاعية تقف فى وجه الاستعمار ، وتقوم « سداً يحول عن المسلمين السيول المتدفقة عليهم من كل جانب » ، ومعنى هذا أنه كان يرجو من الوحدة أن تكون وقاية وحماية ، هدفها الوقوف فى وجه الخطر وكنى ، ولكنا نراه بعد ذلك يتوسع فى الأمل ، ويتفسح فى الغاية ، إذ يقرن « بالميل إلى وحدة تجمع ، الكلف بسيادة لاتوضع !! » ، ويطمع أن يرى المسلمين « تتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب ، فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، وألا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه .. !!

وكأن الرجل قد رأى نفسه فى القمة من الرأى والقوم لا يزالون يدرجون عند السفح ، وكأنه أدرك أنه بلغ فى التوسع بالأمل مبلغاً تتعاظمه النفوس ، وتستهوله العزائم ، فأخذ يتلمس كل وجه من وجوه التدليل على مايجب من الحماسة لهذه الغاية الضرورية ، وراح يبذل كل ما فى وسعه من اللباقة والزلاقة ليصل بهذا الرأى إلى أطواء القلوب ومكامن العقيدة ، فنراه يقرر أن الوحدة والسيادة « أمران خطيران ، تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه ، بل يستلزمه » ، وبعد أن يتمشى الأفغانى فى شرح هذا الاستلزام من الناحية النظرية ، يجنح فى الاستدلال إلى مايدل عليه « تصفح تاريخ الأجناس ، واستقراء أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها ، وما درجت عليه سنة الله فى الجميات البشرية ، من جعل حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب .. ! ! » ، ثم ينتهى فى أسلوبه هذا إلى الوتر الحساس ، وتر الدين المشدود بالقلوب ، فيقرر « أن الوفاق والغلب ركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بهما ، فمن خالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .. !! » ، ولكنه لا يخلص من هذه النتيجة إلا بعد أن يدعمها بكثير من آيات التنزيل ومأثور السنة ومواقف الإسلام..

فما هذا ؟ أهى أحلام المجد ، وسمرات مثالية كانت تملأ رأس الرجل وتغمر وجدانه ؟ أم هى دعوة إلى الممكن يؤدى إليها الامكان ويحتملها الجهد ؟! يبدو لنا أن الأفغانى وضع أمامه صورة الأمبراطورية الإسلامية فى عصرها الزاهر ، وسلطانها الغالب ، وأخذ يرسم للمسلمين صورة مماثلة لها ويضعها أمامهم الغاية الرشيدة التى يجب عليهم بلوغها والأخذ بأسبابها ، فكان صنيعه هذا كصنيع الحكماء فيما تصوروه فى قيام « المدينة الفاضلة » ، كل ماعندهم أن يصح الرأى فى أذهانهم ولا شأن لهم إذا لم يصح فى عالم الواقع الذى عليه الناس ، وهكذا راح الرجل يموج فى أمل طويل عريض ، ويقف بالرأى عند غاية تحتاج فى إدراكها إلى رجال وحبال كما يقولون ، وفاته أنه كان يهز جسماً فقد حيويته ، وينادى على عالم ضاعت معالمه ، فليس هذا مما يكفى فى إيقاظه ، ولكنه كان يحتاج إلى بعث جديد ، وخلق من طراز آخر .

فالأفغانى لم يكن فى أمله هذا بالرجل السياسى الذى يرسم طريق الخلاص على ماتسمح به الظروف والملابسات ، وما يمكن أن يكون فى عالم الواقع الماثل بما يصح أن تبلغه الجهود ويؤدى إليه الاستعداد ، ولكنه كان ينزع نزعة مثالية يضع بها الأمل فوق العزم ، وينتهى فيها إلى غاية أكبر من الجهد ، وهل كان من الممكن أو من المعقول أن ينهض العالم الإسلامى الذى فرقه الاستعمار ، وقتله الجمود ، وفقد كل عدة مادية ، وقوة معنوية ، فيقف بين عشية وضحاها جبهة مدافعة ، وقوة متسلطة ، أمام الغرب الطاغى ، والاستعمار الزاحف بما لا مثيل له فى التاريخ من أساليب السياسة والفكر ، وأفانين المدة والنخر ، فياليت شعرى ، ألم ير الأفغانى ، وهو الذى طوّف بكثير من أنحاء الدنيا

كيف كان الغرب يسير بالبخار وبالكهرباء على حين كان الشرق فى ذلك الوقت لايزال يركب الجمل ؟ ! .

إنها فى الواقع حقيقة لم تغب عن فطنة الأفغانى ، ولم تغرب عن إدراكه النافذ ، فعلى الرغم من أنه كان يثق ثقة كبيرة بالقيمة العددية واحتشاد الجموع ، فأنه لم يقف بأمله عند تحقق الوحدة وجمع الكلمة ، بل أخذ يدعو إلى الإستعداد المادى « واكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته » ، وإنه ليضرب للمسلمين المثل فى ذلك بأمة الروس ، وهى كما كانت « أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائرأمم أوروبا ، وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ، ولكن كانت ، فليس هناك مايستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والفاقة والعوز ، غير أن تنبيه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم ، واتفاقهم على النهوض به ، وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطواتها رواسى أوروبا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعد بها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاها دول أوربا .. »

وهذا صحيح ، صحيح فى عالم المعقول ، وفى عالم الإمكان ، وهنا يسير الأفغانى بأمله فى الوحدة إلى طريق عملى ، ويهدى إلى أسلوب واقعى ، كان من الضرورى أن يكون فى إدراك الغاية ، وبلوغ الهدف ، وهوالذى كان فعلا فيما أخذت به الأمم الإسلامية فى نهوضها وفى توثبها إلى حياة العزة والحرية ، وما من شك فى أن الأفغانى كان يعلم أن هذا الطريق يستغرق فى اجتيازه مسافة من السنين والأعوام ، وأنه لايؤدى إلى نتيجة عاجلة يستطيع العالم الإسلامى بلوغها فى أيام ، ولكنه على الرغم من ذلك كان ينادى ويهيب ويتعجل الغاية ويطمع أن يرى القوم عندها بين طرفة عين وانتباهتها . وهنا يبدو الأفغانى مرة أخرى مسرفاً فى الأمل ، مغرقاً فى الرجاء .

إن بناء الأمم والشعوب يتمشى مع الزمن وبطور الأيام ، ولن تستطيع دعوة من دعوات الإصلاح أن تؤتى ثمرها وأن تتحقق النتيجة من ورائها إلا إذا نضجت واستوت وأشربتها النفوس والقلوب عقيدة راسخة ثابتة ، فالمبادىء التى نادت بها الثورة الفرنسية لم تستطع القوة أن تحققها طفرة ، ولم تقدر المقصلة أن تفرضها رغباً ورهبة ، ذلك لأن الزمن لم يكن قد أنضج تلك المبادىء بعد ، فشبت الثورة واستطار لهيبها فى أرجاء العالم ، ثم همدت وماتت وقد خلفت من ورائها تلك المبادىء يحققها الزمن بما فى قدرته على الإنضاج والتسوية ، ولا يزال الزمن يجد فى تحقيقها إلى اليوم . وكذلك كانت الثورة العرابية ، تلك الثورة التى قامت كما نعلم تروم خطة واسعة وغاية كبيرة كانت لا تزال تجوى فى المجال الفكرى والعقلى عند القادة ، ولم تكن قد انحدرت بعد إلى قلب الشعب فى مكان العقيدة ، ولهذا فشلت الثورة بها فجأة كما قامت فجأة ، وانتهت على أهون مايكون كما ابتدأت بأهون مايكون . ولو أن الشعب كان يضم جوانحه على ماتنادى به الثورة من المبادىء والأغراض ، وما تهدف إليه من المطامح والغايات ، لما أفلحت الدسيسة فى خذلانه ، ولا وجدت الخيانة مكانا بين صفوفه ، ولما سلم فى الجولة الأولى وجعلها بداية النهاية .

فما نحسب أن الأفغانى كان يخفى عليه إدراك هذه الحقيقة ، ولكنه كان ينظر إلى طغيان الاستعمار على الشرق وإلى المطامع التى أنشبت أظفارها بعنقه ، فكان يفزع لسوء المنبة ، ويجزع من التراخى أمام الكارثة ، ويصرخ بدعوته إلى رأب الصدع وحشد الجهود وفى الأمل بقية . وإن من الظلم للتاريخ وللرجل أن نتهمه بالفشل وأن نصف مسعاه بالخيبة ، فحسبه نجاحا أنه رسم الطريق ، وهيأ الأذهان ، وأقام فكرته عقيدة كان لها أكبر الأثر فى توجيه الشرق الإسلامى إلى مجالى النهوض والتجمع ، وإن ماوصلنا إليه من وضع فى الوحدة لثمرة من ثمرات ذلك الرجل العظيم .

لقد أيقظت دعوة الأفغانى الشرق ، كما أفزعت الغرب ، وعلى الرغم من أن الرجل كان يبذر آراءه فى تربة غير صالحة من طول ما تراكم عليها من صدأ الجهل واستبداد الظلم ويأس الخنوع ، فقد استطاع لصدق غيرته وشدة نخوته وقوة شخصيته أن يصل بها إلى قرارة النفوس والقلوب ، وأن يحشد لها جهود النيورين ، وأن يقيم لها دعامة قوية من التلاميذ والمريدين ، وبهذا أصبحت تياراً

فكريا مضاداً لأطماع الاستعمار الأوروبي من جهة ولمفاسد الاستبداد العثماني من جهة اخرى ، ولم يكن الاستعمار الأوروبي الطامع بجهل خطر هذه الدعوة عليه إذا ما نجحت ، ولم تكن تركيا دولة الخلافة والرئاسة تنظر إليها إلا بعين الشك والريبة ، بل كانت تراها فكرة هدامة ، ودعوة إلى التمرد على « الاسلامية » التي تمثلها الخلافة ، فكان من الطبيعي أن يكون الأفغاني ومريدوه والمتشيعون له هدفاً للمناهضة والتنديد والاتهام . وكان أول تهمة ألقيت على الأفغاني وأتباعه في دعوتهم أنهم دعاة عصبية وتعصب . وقيل يومذاك إنهم يريدون النهوض بالمسلمين على حساب الطوائف الأخرى التي تقطن البلاد الإسلامية ، وارتفعت صيحات كثيرة تندد بالتعصب وبالمسلمين « الجامدين » الذين يدعون إلى العصبية . ارتفعت هذه الصيحات من جانب الغرب وفي وسط الشرق الاسلامي نفسه ، وكان لها أثر ملموس في مناهضة الوحدة على الوضع الذي كان يريده الأفغاني ، وإنها لتهمة مغرضة ينكرها الرجل كما ينكر دعاتها ، ولهذا اضطر الرجل أن يرسل هذه الصيحة للتحذير والتنبيه في العدد الثامن من مجلة العروة الوثقى إذ يقول : « لا يظنن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم ، والأفساد في بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب ، واستأثروا بخيراتها ، وأذلوا أهلها أجمعين ... »

فالأفغاني لم يكن داعية تعصب ديني بالمعنى المفهوم في الغرب ، ولم يكن داعية تعصب جنسي يقف عند صلات الدم ، ولكنه كان ينادي في ذلك بروح الإسلام السمحة ، وقد لبث هو وتلاميذه يصولون في مجالس الدعوة بهذه الروح وفي هذا الاتجاه ، وإذا كانوا في كتاباتهم قد دعوا إلى العصبية ، فانما هي العصبية للنهوض والأخذ بأسباب التقدم ، ولو أننا رجعنا إلى كتاباتهم لرأيناهم يستعملون العربية والشرقية مرادفة للاسلامية ، وإنما دعا الأفغاني وأتباعه إلى الوحدة باسم الإسلام لتكون أعم وأشمل ، وليدخل في حسابها أمم إسلامية لا تمت إلى العربية ولكن لابد من ضمها إلى الوحدة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان « الإسلامية » كانت كما يقول بعض الكتاب : « رمزاً لروح خاص ، وعقلية خاصة ، وحضارة خاصة أيضاً » ، وقد كانت الرباط المتين الذي ربط أجزاء الأمبراطورية العربية على طولها وامتدادها في أفريقية وآسيا وأوروبا ، وقد كانت تركيا نفسها تحكم هذه الشعوب وتبسط سلطانها على جميع الطوائف في الشرق باسم الاسلام وحمل لواء الخلافة الاسلامية .

والواقع أن الأفغاني لم يكن واهماً في اختيار العامل الديني الوحدة وجمع الكلمة ، فقد ظل هذا العامل يكيف التفكير الاجتماعي والاتجاه العمراني في الشرق آمادا طويلة وقروناً متعاقبة ، ولم يكن لعامل من العوامل في تحريك الوجدانات والعواطف وسحر العقول والقلوب مثل ما كان لذلك العامل العريق الذي صنعه الزمن وقواه التاريخ وأرسخته المشاعر المستغرقة ، فكان اختيار الأفغاني اختيارا طبيعياً ضرورياً لاغبار عليه ولامناص منه ، لأنه أمسك برابطة قوية متينة لا تقوى عليها إلا رابطة راسخة تسندها قوة دافعة ، ولو أن الرجل تنكب هذا الطريق ونظر إلى الاعتبار السياسي بعيدا عن هذه الرابطة لما صنع شيئاً ، ولضاعت صرخته في واد .

(للكلام صلة)

محمد فهمي عبد اللطيف

إدارة بلديات — مطافئ

تطرح بلدية بني سويف بالمزايدة العامة بيع سيارات وكاوتش وصفائح فارغة وصاج وحديد وظهر خردة وأصناف أخرى مستعملة ، وتقبل العطاءات بالبلدية لغاية ظهر ٥/٥/١٩٤٥ وتطلب الشروط منها نظير مائة مليم .

٣٣٨٥